خليل مردم بك

ركنان فى الشاعر الفرزدق

للأستاذ جليل

— ٢ —

أورد الأستاذ المرصفى قول الفرزدق فى هذه الرواية فى الأغانى فى أثناء بحث اجترأ به ، وقد رأيت سوق القصة بتمامها فى هذا المقام :

« نزل الفرزدق على الأحوص حين قدم المدينة فقال الأحوص: ما تشتهى ؟

قال: شواء وطلاء وغناء . قال : ذلك لك، ومضى به إلى قينة بالمدينة ، فغنته

ألا حىّ الديار بسُعدَ إنى ... أحب لحب فاطمة الديارا[1]

إذا ما حلّ أهلك يا سليمى ... بدارة صُلصل شحطوا مزارا[2]

أراد الظاعنون ليحزنونى ... فهاجوا صدع قلبى فاستطارا !

فقال الفرزدق : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها ! قال : أوَ ما تدرى لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله . قال : فهو (والله) لجرير يهجوك به ...

فقال : ويلُ ابنِ المراغة ! ما كان أحوجه مع عفافه إلى ملابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره »

وأملى أبو العباس فى (كامله) الحكاية مطوّلة ، وجاء فى ختامها : « فقال الفرزدق ما أحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى ، وأحوجنى مع فسوق إلى رقة شعره »

فالفرزدق وجرير فى الإسلاميين يحسبان مثل حبيب والوليد فى المحدثين : « ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد ، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى[1] »

وهى طبيعة المرء ، وهو مزاجه : « كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ، ويصلب شعر الآخر . وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق[2] »

وقد قلت فى بحث قبل : ما اختلف الطائيان الأكبر والأصغر فى الطريقة ، إلا لاختلاف الخليقة ، فمن تشددت خليقته استفاد للجزالة ومتنت عبارته . ومن سجحت ضريبته رقت كلمته ؛ فالأمر عائد إلى الطبائع . وقول الأفرنج فى هذا المعنى معروف

« والفرزدق وجرير والأخطل أشعر العرب أولاً وآخراً ، ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه . وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون ، وهم أبو تمام وأبو عبادة وأبو الطيب المتنبى، فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء »[3]

وللثلاثة الإسلاميين فضيلتان ، وللثلاثة المحدثين الذى هولهم . وقد تخرج الآخرون على الأولين وأمثالهم التخرج التام . وثقفتهم تلك الحضارة ، ورأوا دنيا لم يرها سالفهم فى الزمن ، وأوثروا بما أوثروا به ، فتفوقوا على غيرهم ، ولم يجىء من بعدهم أشباههم

ومن الأسباب التى برع بها الإسلاميون الجاهليين : « أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سموا الطبقة العالية فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتفعت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل

---

(١) سعد : موضع بنجد . فى معجم البلدان : قال أبو زياد : سعد ماء وقرية ونخل من جانب اليمامة الغربى بقرقرى

(٢) دارة صلصل : موضع لعمرو بن كلاب وهو بأعلى دارها بنجد (معجم البلدان)

(١) المثل السائر لابن الأثير

(٢) الوساطة للجرجانى

(٣) ابن الأثير فى المثل وفى كتابه (الوشى المرقوم) هذا الخبر اللطيف غير المعروف : كنت سافرت إلى مصر سنة (٥٩٦) ورأيت الناس مكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك فلم يذكروا فى هذا شيئاً . ثم إنى فاوضت عبد الرحيم بن على البيسانى — القاضى الفاضل — رحمه الله فى هذا ، فقال : (إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس) ولقد صدق فيما قال

الجاهلية وممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها[1] »

والفرزدق أفضل الثلاثة الإسلاميين ، وقد وصفه وصاحبيه خالد بن صفوان فى خبر فى الأغانى ، وفى قوله حق كثير ، وأسلوبه يحكى وصف (الهمذانى) الفرزدق وجريرا فى المقامة القريضية . وهذا ما نسب إلى خالد : « أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلاهم عللاً ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زأر ، والسامى إذا خطر ، الذى إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان — فالفرزدق . وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع — فالأخطل . وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه ستراً ، الأغر الأبلق ، الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق — فجرير »

وقال أبو الفرج : « الفرزدق مقدم على الشعراء الإسلاميين هو وجرير والأخطل . ومجاله فى الشعر أكبر من أن ينبه عليه بقول ، أو يدل على مكانه بوصف ؛ لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم ، ويعلمان تقدمه بالخبر الشائع علماً يستغنى به عن الإطالة فى الوصف (وقد) اختلف (الناس) بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة فى أيهم أحق بالتقدم على سائرها . فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه . وهما فى ذلك طبقتان : أما من يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق . وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل النزل فيقدم جريراً » .

والفرزدق عند الشعراء الحذاق الكبار والعلماء العارفين أعظم من جرير . روى الأستاذ المردى فى (الكتاب) عن (الموشح) للامام المرزبانى : « قال أبو الغوث يحيى بن البحترى : كان أبى يقول : لا أرى أن أكلم من يفضل جريراً على الفرزدق ، ولا أعده من العلماء بالشعر . فقيل له : وكيف ؟ وكلامك أشد انتسابا إلى كلام جرير منه إلى كلام الفرزدق . فقال : كذا يقول من لا يعرف الشعر . لعمرى إن طبعى بطبع جرير أشبه ، ولكن من أين لجرير معانى الفرزدق وحسن اختراعه ؟ جرير يجيد النسيب ولا يتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء : بالقين[1] ، وقتل الزبير[2] وبأخته جعثن[3] ، وامرأته النوار[4] . والفرزدق يهجوه فى كل قصيدة بأنواع هجاء يخترعها ويبدع فيها »

وقد عرف الأستاذ المردى من نبوغ الفرزدق ما عرفه البحترى ، بل تنبه على من لم يتنبه عليه . وظنى أن هذا ما بعث الأستاذ على أن يخص أبا فراس بكتابه ، وإن كان طبعه — كطبع البحترى — لطبع جرير أشبه ، وشاكلت رقتُهُ رقتَهُ

وقد نقد ضياء الدين بن الأثير رواية الموشح نقداً غير صواب ، ومما قال : « إن البحترى عندى ألب من ذلك ، وهو عارف بأسرار الكلام ، وكيف يدعى على جرير أنه لم يهج الفرزدق إلا بتلك المعانى الأربعة التى ذكرها ، وهو القائل :

لما وضعت على الفرزدق ميسمى[5]

وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة فى بيت واحد .

وإعجاب ابن الأثير بمثل هذا البيت أمرٌ إمْر . وهل هذا من درجة الاجتهاد التى بلغها وذكرها فى قوله فى مقدمة كتابه : « ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما هى متبعة » وقال ابن الأثير : « ولو سلمت للبحترى ما زعم من أن جريرا ليس له فى هجاء الفرزدق إلا تلك المعانى الأربعة لاعترضت عليه

---

(١) ابن خلدون فى المقدمة فى الفصل الثامن والأربعين فى أن حصول هذه الملكة — ملكة النثر والنظم — بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ ١٤ ، ١٣

(١) جرير :

هو القين وابن القين لا فين مثله لقطع المساحى أو لجدل الأدادم

قطع الحديدة عرضها وسواها . السداد كالمجرمة إلا أنها من حديد

(٢) جرير :

إن الحوارى لو نادى فوارسنا لاستشهدوا أو نجا والقوم أحرار

(٣) قال اليربوعى : كان جرير يقول : أستغفر الله فيما قلت لجعثن ، وكانت إحدى الصالحات ، امرأة صدق

(٤) كانت النوار امرأة صالحة

(٥) هذه رواية (المثل)

بأنه قد أقر لجرير بالفضيلة ؛ وذاك أن الشاعر المفلق أو الكاتب البليغ هو الذى إذا أخذ معنىً واحداً تصرف فيه بوجوه التصرفات ، وكذلك فعل جرير فإنه أبرز من هجاء الفرزدق بالقين كل ضريبة » وأورد ابن الأثير من « هذه الأساليب التى تصرف فيها جرير » سبعة أبيات ، منها :

قال الفرزدق : رقّى أكبارنا قالت: وكيف ترقع الأكبار؟[1]

وسيف أبى الفرزدق فاعلموه قدوم غير ثابتة النصاب[2]

ولو لم يرو مثل هذا لكان خيراً لابن الأثير ولصاحبه جرير « قال جرير لرجل من بنى طهية : أينا أشعر أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامة والفرزدق عند العلماء . فصاح جرير : أنا أبو حزرة ! غلبته ورب الكعبة ! والله ما فى كل مئة رجل عالم واحد »[1]

فإن أصبر قول الطهوىّ جريراً وازدهاه فهل يرضى صاحب أبرع كتاب فى العربية فى بابه أن يكون من العامة ؟

وما نقصد بهذا القول إزراء بابن الخطفىّ ، فجرير ما جرير ؟! وهو الثانى فى الثلاثة ، هو الابن فى الثالوث الإسلامى . . . وقد قال الفرزدق : « إنى وإياه ـ يعنى جريراً ـ لنغترف من بحر واحد وتضطرب دلاؤه عند طول النهر »[2]

وإذا كان ضياء الدين يرى « الشعر كله فى ثلاث لفظات فإذا مدحت قلت : (أنت) وإذا هجوت قلت : (لست) وإذا رثيت قلت : (كنت) »[3] فقد غمز فى نفسه ، وأقبل مقلداً من المقلدين لا مجتهداً ـ كما يصف نفسه ـ من المجتهدين

(يتبع — الاسكندرية)

* * *

(١) أكبار : جمع كير : الزق الذى ينفخ فيه الحداد

(٢) القدوم التى ينحت بها : تخفف أتى ، قال ابن السكيت : ولا تقل قدوم بالتشديد ، والجمع قدائم وقدم (اللسان) وفى المصباح : التشديد لغة

(١) الأغانى

(٢) طبقات الشعراء للجمحى

(٣) العمدة لابن رشيق

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم إليكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى أثمانهـــا . . .

رائعة فى ألوانهـــا . . .

فبادروا بأخذ طلباتكم